

تعرف على تاريخ انتشار المذاهب وهجرة الكتب



الثلاثاء 30 ديسمبر 2025 08:00 م

يقول القاضي ابن العربي الأندلسي المالكي (ت 543هـ/1148م) في كتابه 'قانون التأويل': "ولقد كنت يوما مع بعض المعلمين، فجلس إلينا أبي، فدخل إلينا أحد السماسرة وعلى يديه زُمة كُتِبَ، فإذا بها من تأليف [أبي جعفر] السَّفْنَانِي (ت 444هـ/1053م) شيخ [أبي الوليد سليمان بن خلف] الباجي (ت 474هـ/1082م). فسمعتُ جميعهم يقولون: هذه كتب عظيمة وعلوم جليلة جلبها الباجي من المشرق؛ فصَدَّعتُ هذه الكلمة كبدي، وجعلوا يوردون في ذكره ويُصدِّرون، ويحكون أن فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون!!"

من ذلك المشهد المفعم بتعظيم الراحلين في طلب العلوم العائدين إلى بلادهم بنفائس أوعيتها؛ تملكت ابن العربي الغيرة العلمية فكانت ردة فعله على ما سمعه -من مُجَالِسي والده الوزير العالم محمد بن عبد الله المُعَاوِي الإشبيلي (ت 493هـ/1100م)- ما عبّر عنه هو بقوله: "ونذرتُ في نفسي طِيَّةً (= نِيَّةً) لئن ملكْتُ أمري (= بلغت سن الرشد) لأهاجرنَّ إلى هذه المقامات (= حواضر العلم بالمشرق)، ولأُفدِّنَ على أولاء الرجال، ولأُتمرسنَّ بما لديهم من مقالات!!"

تلك إذن كانت ردة الفعل النفسية التي قابل بها ابن العربي الإشادة بالكتب التي جلبها الإمام الباجي من المشرق، فدفعت -وهو فتى يافع- إلى رحلة علمية مشرقية مشابهة -عزْضاً وأقداً- لرحلة الباجي أنفق فيها 11 عاماً من عمره العاصر بالعطاء علماً وعملاً، وعاد منها إلى بلاده الأندلس سنة 496هـ/1103م بحصاد علمي وفير حقق به أمنيته الأثيرة!!

وفي هذه المقالة؛ نرصد ظاهرة التأريخ لهجرة الكتب وانتقال الآراء والمذاهب من قُطر إلى آخر ومن عصر إلى عصر، كاشفين معالم هذه الظاهرة الثقافية الفريدة التي تُبرز احتفاء المسلمين الشديد بكل كتاب جديد في فنه؛ مما جعلهم يخلّدون -في دواوين تواريخهم- أسماء وسير من نقلوا تلك المعارف والمصنفات، ناسبين إليهم الفضل في السبق إلى تحقيق ذلك!

وهذا التوثيق الأصولي لجذور المعارف والتقصي لحركية انتشارها الجغرافي يعدّان من متقّمات قراءة واستيعاب تاريخ الأفكار وخرائط تنقلاتها، ومن دواعي فهم أسباب ازدهار أو كساد بعضها في لحظة تاريخية معينة.

ولعل هذا كان هو الدافع الرئيس لأن تنشأ في تراثنا المعرفي مصنّفات "الفهارس" و"الأثبتات" و"المعاجم" و"الطبقات"، وغيرها من التصنيفات المعرفية التي تتحرى ضبط "سلاسل توريد" أصول ومصادر الصناعات الفكرية، وتتعقب أحوال خَلَقَتها من الرجال والنساء، وتعيّن مواضع نشأتها وأوليائها في شتى الأمصار وتحولاتها وتأثيراتها في مختلف الأعصار.

ومن ثمرات هذه العملية التأريخية معرفة كيف تتوالد حلقات العلوم، والوقوف على التطورات والتأثيرات الحاصلة فيها، وهو أمر مهم لعمليات التقويم والإصلاح والتجديد؛ فالوعي التاريخي بسُنن تداول المعارف (ظهوراً وضموراً) والمذاهب (ازدهاراً واندثاراً) يدفع لاستمرارية الإبداع والتطوير المعرفي، ولعل هذا من أنفع موارِيث تلك الخبرة المعرفية التي حرص على توثيقها مؤرخو الأفكار في الحضارة الإسلامية كما سنطالعها مبسوطاً في هذه المقالة!!

دوافع منهجية

يعود اهتمام مؤرخي الأفكار ورواد التاريخ الثقافي الإسلامي برصد أوليات انتشار المعارف وهجرات الكتب وترحال الآراء والمذاهب -من مواطن أصحابها إلى مختلف الأقاليم والأمصار- لعدة أسباب؛ أهمها حرص المسلمين على اتصال السند، واعتزازهم بالرحلة ولقاء الأكابر، وتصنيفهم لكتب طبقات علماء المذاهب والطوائف والمعارف، وتأريخهم لأوائل العلوم والأشياء والأحداث.

ومن ذلك أيضاً تأليفهم لما يسمونه "البرامج" و"الفهارس" و"الأثبتات" و"معاجم الشيوخ"، وهي كتب يؤثق فيها أحدهم -بذكر طُرُق الروايات والأسانيد- ما أخذه من كتب علمية وعمن أخذها من الشيوخ، وأين ومتى وكيف أخذها؟ فهذه المصنفات كان لها الإسهام الأهم في

التأريخ للمعرفة وانتقال الآراء والمذاهب بين الأعصار والأمصار وهو ما يساعد الدارسين في تحديد نشأة الأفكار والمذاهب والفرق، والتعرف على مسارات انتقالها وساحات انتشارها، ورصد تطور الحركة الثقافية والفكرية -في الأقطار الإسلامية- وما تولّد عنها من علوم وأعلام وأعمال

ومحورية تلك الفهارس في ذلك ينبئنا عنها قول ابن إسحق النديم (ت 380هـ/991م) في مقدمة 'الفهرست': "هذا فهرستٌ كُتِبَ جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها، في أصناف العلوم وأخبار مصنفاتها، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اختُرِعَ إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة!"

ودلالةً على أهمية هذه التوثيقات والأسانيد؛ شاعت بين العلماء العبارة التي نقلها الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ/1448م) -في 'فتح الباري'- عن بعض الفضلاء، وهي أن "الأسانيد أنساب الكتب"! كما يُنبئنا العنوانُ الذي اختاره جلال الدين السيوطي (ت 911هـ/1506م) لأحد كتب معاجم شيوخه عن حضور هذا البعد التأريخي التوثيقي في أذهان السلف؛ إذ سقاه: 'أنساب الكتب في أنساب الكتب'!

ولذا اهتم المسلمون مبكرا بتأليف كتب "الطبقات" فكانت سلاسل رواة العلم معروفة محفوظة، ومحطات انتقاله مدوّنة، وخرائط انتشاره مرسومة بعناية ومؤرخة بدقة، و"براءات" امتلاك أولية حملته ونشره في الأقاليم محفوظة بأسماء من تحملوا عبء ذلك، فحازوا بذلك "فضيلة السبق" التي منحها قاضي القضاة المؤرخ ابن خُلّكان (ت 681هـ/1282م) -في 'وفيات الأعيان'- للخطاط الشهير محمد بن علي مُقلّة (ت 328هـ/939م)، لأنه طوّر طريقة الخط العربي حتى أصبح على صورته البديعة المعروفة اليوم، فكان "أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة، وله بذلك «فضيلة السبق» هو وأخوه" الكاتب الأديب أبو عبد الله الحسن بن علي بن مقلّة (ت 338هـ/949م).

ولم يؤثّق علماؤنا أنساب كتبهم وسلاسل مروياتهم فقط، بل تعدوا ذلك إلى توثيق حقوق وضع المصطلحات والمفاهيم العلمية! ومن ذلك ما نجده عند اللغوي أحمد بن فارس القزويني (ت 395هـ/1005م) حين ذكر قول ابن دريد الأزدّي (ت 321هـ/933م) إن الأصمعي (ت 216هـ/831م) يُخطّي "قول العامة: 'هذا مُجَانِسٌ لهذا'، ويقول: ليس بعربي صحيح"! فعَلّق ابن فارس: "وأنا أقول: إن هذا غلط على الأصمعي لأنه الذي وضع كتاب 'الأجناس'، وهو أول من جاء بهذا اللقب (= المصطلح) في اللغة".

وكذلك فعل برهان الدين الأبناسي الشافعي (ت 802هـ/1399م) -في 'الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح'- لما تحدث عن معنى مصطلح "المُدبَّج" في أنواع الحديث النبوي، فنصّ على أن الإمام "الدارقُطْنِيّ" (ت 385هـ/996م).. أول من سقاه المدبّج، وأول من صنّف فيه كتابا سقاه 'المدبج' في مجلد".

أما علم أوائل الأشياء والأعمال وبدايات الأحداث والمسميات فقد برّز فيه المسلمون وكتبوا فيه كتباً متنوعة، وله حضوره الجليّ في المصنفات التاريخية؛ فالإنسان بطبعه له اهتمام بذلك وتطلّع إلى معرفته، كما قال أبو هلال العسكري (ت 395هـ/1006م) في كتابه 'الأوائل' الرائد في هذا الباب: "وقد رأيت أكثر الخاصة ودُلّ العامة لهجّين (= موأعين) بالسؤال عن أوائل الأعمال، ومتقدّمت الأسماء والأفعال!!"

سفرء المذاهب

حين يرى الباحث تراث مذهب فقهي أو فِرقة فكرية في قُطر من الأقطار الإسلامية؛ يخيّل إليه بدهشة أن ذلك الثراء الفقهي والتنظيري والتأريخي قام به -في مبدئه- آلاف الفقهاء ومئات العلماء، والحقيقة أن ذلك الكم الهائل من المؤلفات والعلماء والمناظرات والنضال المذهبي يرجع في بداية أمره غالبا إلى رجل واحد، رحل من مسقط رأسه إلى شيخ المذهب الأول أو أحد تلاميذه الكبار وعاد بالمذهب، أو أن رجلا آخر هاجر من محل ميلاد المذهب وتغرب في مصر من الأمصار فنشر فيه المذهب والعلم الذي ارتضاه

فهذه مصرٌ كانت غارقة في الولوج بثقافة الملاحم وقصص المواعظ حتى قيّض الله لها إماما من أبنائها هو يزيد بن أبي حبيب النوبي (ت 128هـ/746م)، الذي يصفه الذهبي (ت 748هـ/1348م) -في 'تاريخ الإسلام'- بأنه "أحد الأعلام" وكان أسود حبشيا وكان مفتي أهل مصر! ثم يتحدث الذهبي عن الأوّلية المعرفية التي حظي بها هذا الإمام الحبشي بإحداثه تحولا تاريخيا في أرض الكنانة أصبحت به إحدى كبريات قلاع العلوم العقلية والعقلية في عالم الإسلام؛ فيقول إنه "هو أول من أظهر العلم والمسائل [الفقهية] والحلال والحرام بمصر، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن!!"

وأما بعد تبلور نشأة المذاهب الفقهية في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي؛ فقد عرفت مصرٌ -التي أنجبت الإمام الطحاوي الأزدّيّ (ت 321هـ/833م) أحد أعظم أئمة ومؤصلي المذهب الحنفي الذي نشأ بالكوفة- هذا المذهب عن طريق رجل ليس بتلك الشهرة التاريخية، ونقصد القاضي العراقي إسماعيل بن اليسع (ت 167هـ/783م) الذي هو "أول من أدخل مذهب أبي حنيفة مصر" وكانوا لا يعرفونه"، كما في 'رُفَع الإصر' لابن حجر

وغير بعيد من الكوفة نفسها؛ نجد أن أول "من جلب رأي أبي حنيفة إلى البصرة" هو الفقيه يوسف بن خالد السّفتي (ت 190هـ/806م)، وهو أيضا -حسب ابن حجر في 'تهذيب التهذيب'- يعدّ "أول من وضع كتاب الشروط"، أي علم الوثائق الذي يعتني بقواعد كتابة السجلات وتوثيق المعاملات المدنية

ومن الشام -التي نشأ فيها مذهب الإمام الأوزاعي (ت 157هـ/774م)- تحوّل الفقيه المحدث صَعَصَ عَهْ بن سلّام (ت 192هـ/808م) "إلى الأندلس، فاستوطنها في زمن عبد الرحمن بن معاوية (= عبد الرحمن الداخل ت 172هـ/788م) وابنه هشام (ت 181هـ/796م)؛ وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس".

وفي المقابل؛ يقول الإمام الذهبي إن القاضي أبا زرعة الثقفي (ت 302هـ/914م) أدخل إلى بلاد الشام "مذهب الشافعي (ت 204هـ/820م) [حين تولّى قضاء] دمشق وحكّم به القضاة، وكان الغالب عليها قولُ الأوزاعي". لقد كان هذا القاضي شديد الإخلاص لمذهب الشافعي "يوالي عليه ويصانع!" ومن نصرته له أنه "شَرَطَ لمن يحفظ «مختصر المزني» مئة دينار (أي نحو 16.6 ألف دولار أميركي الآن) يهبها له!" وكان رجلاً غنياً "له مال كثير وضيق (= عقر وأراض) كبار بالشام".

رصد دقيق

ولم يحتج انتقالُ المذهب الشافعي إلى العراق المجاور للشام إلى دفع أموال لانتشاره كما فعل القاضي الثقفي في الشام؛ فقد قام بالمهمة الفقيه أبو عاصم الأنماطي (ت 288هـ/901م) الذي يخبرنا تاج الدين السبكي (ت 771هـ/1370م) -في طبقات الشافعية الكبرى- بأنه أخذ المذهب عن تلميذَي الشافعي إبراهيم المزني (ت 264هـ/878م) والربيع المرادي (ت 270هـ/883م)، ثم "اشتهرت به كُتُب الشافعي ببغداد، وعليه تفقه شيخ المذهب [بالعراق] أبو العباس بن سريج (ت 306هـ/918م)".

ووفقاً للذهبي في 'السير'؛ فقد وصل المذهب الشافعي إلى إقليم خراسان بواسطة الإمام محمد بن عبد الوهاب الثقفي (ت 328هـ/940م)، الذي قال إنه "هو أول من حمل علوم الشافعي ودقائق ابن سريج [من العراق] إلى خراسان". وأما إقليم ما وراء النهر (= آسيا الوسطى)؛ فقد عرف المذهب الشافعية على يدي أحمد بن الحسين الفارسي (ت 305هـ/917م) بعد أن "تفقه على المزني" [فكان] أول من درّس مذهب الشافعي ببلخ (تقع اليوم بأفغانستان) برواية المزني".

ونحن نجد أحياناً تحديداً دقيقاً يرصد دخول هذا المذهب إلى مدن بعينها وليس الإقليم العام فحسب؛ فالذهبي ينصّ -في 'تاريخ الإسلام'- على أن دخول المذهب الشافعي إلى أثينا قَرَّابين -الواقعة اليوم بإيران- من خراسان كان بواسطة الحافظ أبي غوانة الأثيني قَرَّابيني (ت 316هـ/928م)، فهو "أول من أدخل مذهب الشافعي وتصانيفه إلى أَشْقَرَّابين، أخذ ذلك عن إبراهيم المزني والربيع" المرادي

كما منح السبكي فضيلة السابق لنشره تحديداً في مدينة نيسابور -وهي من حواضر خراسان- إلى أحمد بن إسحق النيسابوري المعروف بالصُّغفي (ت 342هـ/953م)؛ "فإنه أول من حمل إليها علم المزني" تلميذ الشافعي، والصُّغفي هذا ممن حلّاهم الذهبي -في 'سير أعلام النبلاء'- بلقب "شيخ الإسلام"!

وفي اليمن الذي عاش فيه الإمام الشافعي بُزْهَةً وغادره إلى العراق سنة 184هـ/800م؛ كان الفقيه إبراهيم الخدّاشي (ت 450هـ/1059م) "أول من نشر مذهب الشافعي [هناك]...، وكان [الخدّاشي] فقيهاً كبيراً"، كما في 'قلائد النحر' للطبيب بامخرمة الحضرمي (ت 947هـ/1541م). وقد أرجع غيف الدين اليافعي (ت 668هـ/1269م) -في 'مرآة الجنان'- ظهورَ المذهب الشافعي باليمن إلى عدد "من الفقهاء الجَلّة" مورداً أسماءهم

مغادرة للمنشأ

ولعل المذهبيّن المالكي والظاهري هما أجدر المذاهب بتتبع الانتشار؛ فرغم نشأتها بالمشرق فإنهما سرعان ما غرّبا فكان ازدهارهما خارج منطقة الميلاذ! ففي مصر غير البعيدة من المدينة المنورة كان الفقيه الشاب عبد الرحمن بن خالد الجمحي المصري (ت 163هـ/880م)، "أول من أدخل [إلى] مصر فقه [الإمام] مالك (ت 179هـ/796م)، وبه تفقه ابن القاسم (ت 191هـ/806م) قبل رحلته إلى مالك وكان من الصالحين"، وهو "من قدماء أصحاب مالك وكان معجبا به وبفهمه"، كما في 'تاريخ الإسلام' للذهبي

وفي بلاد الأندلس -التي هيمن فيها الدرس المالكي معظمَ تاريخها- نجد أن فقيهِها زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشَيطون (ت 193هـ/809م) كان "أول من أدخل مذهب [شيخه] مالك إلى الجزيرة الأندلسية، وقبل ذلك كانوا يتفقهون للأوزاعي وغيره"، طبقاً للذهبي -في 'تاريخ الإسلام'- الذي يضيف أن ابن القاسم قال: "سمعت زيادا فقيه الأندلس يسأل مالكا!" كما كان الفقيه الأندلسي عيسى بن دينار (ت 212هـ/827م) "أول من أدخل الأندلس رأي ابن القاسم" الفقيه المالكي المصري الأبرز

وكان سفير مذهب أهل المدينة إلى المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم) الفقيه الزاهد دّرّاس بن إسماعيل الفاسي (ت 357هـ/971م)؛ فهو -كما في 'جذوة الاقتباس' لابن القاضي (ت 1025هـ/1616م)- "ممن أدخل مذهب مالك المغرب، فإنه كان الغالب على المغرب في القديم مذهب الكوفيين (= الحنفية)".

وتفصيلاً لما أجمله ابن القاضي؛ يقول مؤرخ المذهب المالكي القاضي عياض (ت 544هـ/1149م) -في 'ترتيب المدارك'- إن الحنفية غلبوا على "إفريقية (= تونس) وما وراءها من المغرب" إلى أن دخل علي بن زياد (العبسي ت 183هـ/199م) و[عبد الرحيم] بن أشرس والبهلول بن راشد (العبسي ت 183هـ/199م)، وبعدهم أسد بن الفرات (الفارسي ت 213هـ/828م) وغيرهم بمذهب مالك؛ فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفسو إلى أن جاء سَخُون (بن سعيد ت 240هـ/854م) فغلب في أيامه وقصّ حلقُ المخالفين!!

وفي العراق الذي شهد نهضة مالكية في بعض عصوره؛ كان لدخول مذهبهم إلى البصرة قصة طريفة تسببت في نشأة علم "أصول الفقه"! ففي 'مناقب الشافعي' للبيهقي (ت 458هـ/1067م) أن موسى بن عبد الرحمن بن قَهْدي قال: "أول من أظهر رأي مالك بالبصرة أبي (= عبد الرحمن بن قَهْدي ت 198هـ/814م)؛ [فإنه] احتجم ومسح الحجامة ودخل المسجد فطلى ولم يتوضأ، فاشتد ذلك على الناس، وثبت أبي على أمره! وبلغه خبر الشافعي ببغداد، فكتب إليه يشكو ما هو فيه، فوضع له كتاب 'الرسالة' وبعث به إلى أبي، فسُرّ به سروراً شديداً، قال موسى: فإني لأعرف ذلك الكتاب بذلك الخط عندنا!!"

تحولات وفرص

أما المذهب الحنبلي فربما كان أقل المذاهب الفقهية الباقية معلومات بشأن وضوح مراحل انتشاره وأوليات نقل مصنفاته؛ ورغم ذلك فإننا

واجدون فيها إضاءات يتوازي حجفها مع الحيز الجغرافي المحدود الذي انتشر فيه هذا المذهب تاريخيا، فقد أفادنا الإمام السيوطي -في 'حسن المحاضرة'- بأولية خروج المذهب من العراق حيث نشأ وترعرع، فقال إن "الإمام أحمد (بن حنبل ت 241هـ/855م).. كان في القرن الثالث (= التاسع الميلادي)، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع (= العاشر الميلادي)".

ولا ينطلق السيوطي هنا من فراغ في تحديد بداية ظهور الحنابلة في المشهد العلمي خارج موطن نشأتهم العراق؛ إذ يقول الذهبي -في 'السيرة'- مسجلا الإسهام الحاسم من الإمام الحنبلي الخلال البغدادي (ت 311هـ/923م) في جمع آراء هذا المذهب وصيانتها من الاندثار: "ولم يكن قبله للإمام [أحمد] مذهب مستقل، حتى تتبع هو نصوص أحمد ودونها وبرهاتها بعد [سنة] الثلاثمئة (= 300هـ/912م)".

وبحكم الجوار الجغرافي؛ كانت محطة الحنابلة التالية للعراق غربا هي الشام الذي سيصبح معقلهم الأهم حين يفقدون قلعتهم الحصينة بالعراق جراء الاجتياح المغولي للبلاد 656هـ/1258م؛ فقد وصل التمدد الحنبلي إلى الشام -في النصف الثاني مع القرن الخامس/الحادي عشر الميلادي- بواسطة الإمام عبد الواحد الشيرازي (ت 486هـ/1093م)، الذي 'قدم الشام فسكن بيت المقدس فنشر مذهب الإمام أحمد فيما حوله، ثم أقام بدمشق فنشر المذهب وتخرج به الأصحاب'؛ حسب ابن رجب الحنبلي (ت 795هـ/1393م) في 'ذيل طبقات الحنابلة'.

وفي القرن السادس الموالي؛ وصل إشعاع المذهب الحنبلي إلى مصر بعد أن أزال السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت 589هـ/1193م) الدولة الفاطمية، وعزز ذلك ما عُرف به هذا السلطان من احتضان لأهل الحديث^١ ويُفهم من كلام السيوطي أن سبب تأخر دخول الحنابلة مصر هو تزامن خروجهم من العراق مع سيطرة الفاطميين عليها، ثم زال السلطان الفاطمي عنها "أواخر القرن السادس فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب" الشنّة!

وحين ذكر السيوطي "من كان بمصر من أئمة الفقهاء الحنابلة"؛ قال: "هم في الديار المصرية قليل جدا، ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده^٢، وأول إمام من الحنابلة علمت حلوله بمصر [هو] الحافظ عبد الغني المقدسي (ت 600هـ/1203م)".

أما المذهب الظاهري؛ فقد نقله من العراق -حيث عاش إمامه داود الأصبهاني (ت 270هـ/884م)- إلى الأندلس -التي احتضنته قرونا على حدّز- الإمام عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال القرطبي (ت 272هـ/888م)؛ فقد جاء في 'تاريخ علماء الأندلس' لابن الفرضي الأزدي (ت 403هـ/1013م) أن ابن هلال هذا "رحل ودخل العراق، ولقي أبا سليمان داود بن علي القياسي (= داود الظاهري ولعل وِفَّه به 'القياسي' هنا نسبة إلى القياس الفقهي لكونه يرفضه كما قالوا 'قدري' في نسبة من ينفي القُدْر) فكتب عنه كُتُبُه كلها، وأدخلها الأندلس فأخلت به عند أهل وقته".

اهتمام محاييد

ولم يقتصر مؤرخو الثقافة والمعارف على التأريخ لبدایات انتشار المذاهب الفقهية، بل اهتموا كذلك برصد انتقال العلوم والعقائد وأصول الفرق والطوائف؛ فهذا الحافظ ابن حجر يترجم -في 'لسان الميزان'- للمحدث الشيعي البارز إبراهيم بن هاشم القمي (توفي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي)، فيقول إن "أصله كوفي وهو أول من نشر 'حديث الكوفيين' (= المرويات المنسوبة لأئمة آل البيت) بِقُمٍّ^٣، روى عن^٤ أصحاب [الإمام] جعفر الصادق (ت 148هـ/765م)".

وفي المقابل؛ يفيدنا الذهبي -في 'تاريخ الإسلام'- بأن الإمام النضر بن شقيل (ت 204هـ/820م) كان نزيل مدينة مَرُو (تقع اليوم بتركمانستان)، وهو "أول من أظهر الشنّة بمَرُو وجميع خراسان"، وأن الحافظ حميد بن زُجْوَيَه الأزدي (ت 247هـ/861م). هو الذي أظهر الشنّة بِنَسَا (كانت تقع بتركمانستان)".

وفي كتاب 'الثقات' لابن جبان (ت 345هـ/959) أن أبا قدامة عبيد الله بن سعيد الشرحسي (ت 241هـ/855م) "هو الذي أظهر الشنّة ببِزْرُخَس (تقع اليوم بتركمانستان) ودعا الناس إليها"، كما كان الفُهلَب بن الأخطل الأزدي^٥ (ت 259هـ/873م) "أول من أظهر الشنّة بتست (كذا في المصدر؛ ولعلها: بُسْتُ التي هي اليوم لشكر كاه بأفغانستان)، ودعا إليها النَّاس على عبادة دائمة وورع شديد!!"

وغالبا ما يكون ظهور الشنّة في بلد مرتبطا بانتشار رواية الحديث النبوي الصحيح فيه؛ ولذلك رصد مؤرخو العلوم الشرعية أوليات في هذا الباب، فقال السبكي -في طبقات الشافعية- إن "أول من اشتهر بحفظ الحديث وعلمه بنيسابور -بعد الإمام مسلم بن الحجاج (ت 261هـ/875م)- إبراهيم بن أبي طالب (النيسابوري ت 295هـ/911م)، الذي وصفه الذهبي -في 'السير'- بأنه 'إمام المحدثين في زمانه'!"

وقد أَرَّخُوا لنا أيضا نشأة المذهب المعتزلي فقالوا إن "أول من قال في [نفْي] القَدْر بالبصرة فعَيَّد الجهني (ت 80هـ/699م)؛ كما في 'طبقات الشافعية' للسبكي^٦ ويحدثنا ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) -في 'معجم الأدباء'- بأن مدينة زَمْدُشَر -التي أنجبت الإمام الرَّمْخُسَري المعتزلي (ت 538هـ/1143م)- عرفت فكر المعتزلة عبر شيخ له اسمه محمود بن جرير الضبي (ت 508هـ/1114م)، كان هو الذي أدخل "إلى خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها، فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتَمَدُّهُبوا بمذهبه، منهم أبو القاسم الزمخشري".

فِرَق مغرّبة

وكان للمذهب الأشعري -الذي عمّ طوال الألفية الماضية أرجاء العالم الإسلامي- أئمة ناشرون؛ فالمحدث أبو ذر الهروي (ت 435هـ/1044م) كان "أول من حَمَلَ الكلام إلى الخَرَم [المكي] وأول من بثه في المغاربة"؛ كما في 'درء تعارض العقل والنقل' لابن تيمية (ت 728هـ/1328م) الذي أدرك محورية الهروي في نشر الأشعرية، فقال: "وأهل المغرب كانوا يَحْتَوُّون فيجتمعون به ويأخذون عنه الحديث وهذه الطريقة (= الأشعرية)..، فيرحل منهم من يرحل إلى المشرق" فيأخذها عنه^٧

وفي 'أزهار الرياض' للمقري (ت 1041هـ/1632م) أن قاضي المرابطين أبا بكر المرادي الحضرمي (ت 480هـ/1087م) "كان أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى"، ومعروف أن المرادي هذا كان أشعري^٨ المُعْتَقَد^٩

وعن حضور فرقة الخوارج في الغرب الإسلامي الذي كان أولى المناطق التي استطاعوا إقامة دولة فيها أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، بعد أن قويت في إقليمه شوكتهم حيناً من الدهر؛ يخبرنا الحافظ ابن حجر -في 'تهذيب التهذيب'- أن إمام التفسير عكرمة البربري (ت 107هـ/726م) مولى ابن عباس (ت 68هـ/688م) "كان أول من أحدث فيهم -أي أهل المغرب- رأي الصُّفْرية (= فرقة من الخوارج)!!"

ويروي مؤرخ المذهب الإباضي يحيى بن أبي بكر الوارجلاني (ت 471هـ/1078م) -في كتابه 'سِير الأئمة وأخبارهم'- عن أحد أئمتهم أن "أول من جاء □□ [بـ]مذهب الإباضية [إلى إفريقية/تونس].. بِسَلْمَة بن سعد (الحضرمي ت نحو 135هـ/752م)، قَدِمَ □□ من أرض البصرة هو وعكرمة مولى ابن عباس وهما راكبان على جمل واحد حملا عليه زادهما؛ سلمة □□ يدعو إلى الإباضية، وعكرمة □□ يدعو إلى الصُّفْرية!!"

وإن تعجب من وصول رجل مثل عكرمة -كان ملازماً لترجمان القرآن ابن عباس وذُفِن بالمدينة- إلى ذلك الإقليم القصي والغصبي؛ فإن الحافظ الذهبي يبيح -في 'تاريخ الإسلام'- بأن عكرمة كان "كثير التطواف، كثير العلم، ويأخذ جوائز الأمراء! كما يصفه ابن حجر بمرح الروح فيروي أن عكرمة ما عُلِم أن "أحدا ذقّه بشيء الا بُعابة كانت فيه"، فيا له من "خارجي" فنان!!

وكما وصل الإباضية إلى الغرب الإسلامي دخله الشيعة أيضاً؛ فهذا المؤرخ الغماني الصُّحاري (ت 511هـ/1117م) يقول -في كتابه 'الأنساب'- إن علي بن الحسين التَّجَلِّي هو "الذي أدخل مذهب أهل البيت في المغرب وانتهى إلى التسوس (= جنوبي المملكة المغربية).."، وكان متفنناً في العلوم كثير الرواية عن رجال أهل البيت".

ازدهار قفري

اقتصر الأندلسيون في بداية أمرهم على قراءة أهل المدينة، وكان رائدهم في ذلك الغازي بن قيس القرطبي (ت 199هـ/814م) الذي "قرأ على [قفرئ المدينة] نافع (بن أبي نُعَيْم ت 170هـ/776م) وضبط عنه اختياره □□، وهو أول من أدخل قراءة نافع" إلى الأندلس؛ كما في 'تاريخ الإسلام' للذهبي □

وبعد وفاة الغازي بقرنين ونِّف؛ ازدهرت الدراسات القرآنية الأندلسية بفضل جهود شيخ قَفْرَاتِهَا أبي عمرو الداني (ت 444هـ/1053م)، وكانت الأندلس عرفت القراءة -حسب ابن الجُرِّي (ت 833هـ/1430م) في 'غاية النهاية'- على يد الإمام الطَّلَفُوكي (ت 429هـ/1039م)؛ فقد رحل إلى المشرق "ورجع إلى الأندلس بعلم كثير وكان أول من أدخل القراءات إليها".

وفي إفريقية/تونس؛ كان محمد بن محمد بن خيرون القروي (ت 301هـ/913م) "إماماً في القرآن مشهوراً بذلك، قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية وكان الغالب على قراءتهم حرف (= قراءة) حمزة (الكوفي ت 156هـ/173م)، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا خواص، حتى قدِم ابن خيرون فاجتمع إليه الناس"؛ وفقاً لابن الفرضي □

ومن مفارقات تاريخ هجرة كتب القراءات إلى الأندلس أن قصيدة 'حِزْر الأمانِي' التي نظمها الإمام الأندلسي القاسم بن فَيِّزُه الشاطبي (ت 590هـ/1194م) خارج إقليمه دخلت إليه على يد رجل آخر؛ إذ يحدثنا المقريزي (ت 845هـ/1441م) -في 'المُقَفَّى الكبير'- بأن المقرئ محمد بن محمد بن وضاح اللخمي الإشبيلي (ت 634هـ/1236م) كان "أول من أدخل القصيدة الشاطبية في القراءات إلى الأندلس، وعنه أخذها الناس هناك!"

ولم تكن الأندلس تميز بين المذاهب والفرق في الاهتمام بتاريخ قدوم الكتب إليها؛ فقد حفظ لنا المؤرخون تاريخ قدوم تفسير الزمخشري المعروف بـ'الكشّاف' عن حقائق التنزيل، الذي أحدث رتّة في العالم الإسلامي منذ أن كُتِب، إذ يفيدنا ابن حجر -في 'تبصير المنتبه' بتحرير المشتهر- بأن أحمد بن أحمد الحضرمي الإشبيلي المعروف برأس غَنَمَة (ت 640هـ/1242م) "كان أول من أدخل 'الكشّاف' بلاد الأندلس، وكان كَجَّ بعد سنة 590هـ/1194م"؛ أي أن تفسير 'الكشّاف' -الذي اكتمل تأليفه 528هـ/1134م- مكث عقوداً تتعاطاه المجامع العلمية قبل أن يصل إلى الأندلس!!

خطة إمداد

وكان الإشبيلي هذا ورفيق رحلته وبلدتيّه أبو بكر محمد بن أحمد الكناني الإشبيلي (ت 608هـ/1211م) يشعران بأنهما يؤديان مهمة مقدسة لقطرهما الأندلسي، فوضعا خطة تضمن إنجاز أهدافهما بكفاءة □

فقد أورد ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/1303م) -في 'الذيل والتكملة'- أنهما أديا في حدود 595هـ/1199م "فريضة الحج ولقيا هنالك بقايا الشيوخ □□، وقَفَلَا (= رجعا) إلى الأندلس واستصبا فوائد جمّة وغرائب كتب لا عهد لأهل الأندلس بها، انتسخاها هنالك وتوافقا علي أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه رفيقه أو يقابله استعجالاً لتحصيل الفائدة، حتى إذا ألقيا عصا التَّشْيَار بمقرّهما إشبيلية انتسخ كل واحد منهما من قبل صاحبه ما فاتهُ نَسْخُه بتلك البلاد!

فكان مما جلباه: 'الكشّاف' عن حقائق التنزيل، صَنَعَة (= تصنيف) جَار الله □□ الخوارزمي الزمخشري، وكان مما تولّى نسَخَه أبو العباس (= رأس غَنَمَة).. من الأصل المحبّس (= الموقوف) بمدرسة القاضي الفاضل أبي علي عبد الرحيم □□ التَّيْسَانِي (ت 596هـ/1200م).. بالقاهرة، وهو مسموع على مصنّفه "الزمخشري ولذلك فإنه يعدّ نسخة نفيسة متقنة ونادرة الوجود، مما يعطي قيمة خاصة للنسخة التي دخلت من هذا التفسير إلى بلاد الأندلس، لاسيما ان كاتبها أبا العباس الإشبيلي كان "تبيل الخط نقي الوراقة حسن الطريقة" في النسخ والكتابة؛ طبقاً للمراكشي □

كما جلب هذان الرفيقان 'مقامات الزمخشري الخمسون'، و'شرح السُّنة' للبغوي (ت 511هـ/1117م)، و'تاج اللغة وصحاح العربية' للجوهري (ت 393هـ/1004م)، "وهو مما قابله أبو العباس [الإشيلي] هذا، وكانت النسخة التي جلبها من هذا الكتاب في ثمانية أسفار بخط مشرقى!"

وينقل لنا المراكشي موقف بعض فقهاء الأندلس حينها من استجلاب تفسير الزمخشري؛ فيذكر أن الفقيه أبا الحسين محمد بن محمد بن زرقون (ت 621هـ/1224م) انتقد على أبي العباس الإشيلي هذا جُلْبَه تفسيرَ 'الكشاف' إلى الأندلس، لما يتضمنه من آراء معتزلية، فكان يقول: "كانت الأندلس منزهة عن هذا وأشباهه! ولم يزل أهلها -على مرور الأيام- أغنياء عن النظر في مثله، وإن في غيره من تصانيف أهل السنة في التفسير عُتْية عنه".

والواقع أن ما ذهب إليه ابن زرقون من أن الأندلس ظلت "منزهة" عن الفكر الاعتزالي حتى جاء الإشيلي بـ'الكشاف'؛ أمرٌ غير مسلم به لما ثبت من دخول هذا الفكر إليها منذ أوائل النصف الأخير من القرن الثالث، كما نجد في تراجم أعلام أبرزهم خليل بن عبد الملك القرطبي (ت نحو 298هـ/910م) الذي كان يصعد بآراء المعتزلة بالأندلس فقد قال ابن الفرضي إنه "رحل إلى المشرق"، وكان خليل مشهوراً بالقدر (= الاعتزال) لا يتسّر به!"

وهذه المجاهرة بالرأي الاعتزالي أضرت بصداقة خليل القرطبي لعلماء بينهم المحدث الكبير محمد بن وضّاح (ت 287هـ/901م) وجلبت له مشاكل جقة مع أهل البلاد، حتى إنه لما مات جاءت "جماعة من الفقهاء وأخرجت كتبه وأحرقتها" بالنار، إلا ما كان فيها [من] كتب المسائل (= الفقه)!! ويورد ابن الفرضي ما يفيد بكون خليل هذا أول أندلسي روى بالعراق التفسير المنسوب إلى الحسن البصري (ت 110هـ/728م) وأدخله الأندلس

ولعل هذا الظهور المبكر لفكر المعتزلة في الأندلس هو الذي فتح الباب لاحقاً لشيوع المذاهب الفلسفية فيها، حتى بلغ من اهتمام الأندلسيين بالفلسفة أنهم وثقوا لنا اسم من جاءهم بأحد أهم مؤلفاتها المشرقية وهو كتاب 'رسائل إخوان الصفا'؛ فقد نقل ابن أبي أصيبعة (ت 668هـ/1270م) -في 'عيون الأنباء'- عن القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي (ت 462هـ/1071م) أن معاصره المهندس الطبيب أبا الحكم عمر بن أحمد الكرمانى القرطبي (ت 458هـ/1067م) "رحل إلى ديار المشرق" ثم رجع إلى الأندلس، وجلب معه الرسائل المعروفة بـ'رسائل إخوان الصفا'، ولا نعلم أحداً أدخلها الأندلس قبله!!

علاج وإنتاج

يرى المالكية أن كتاب 'الموطأ' لإمامهم مالك هو أول كتاب ألّف في الإسلام، وينقل القاضي عياض -في 'ترتيب المدارك'- أن علي بن زياد التونسي العبسي (ت 183هـ/799م) كان "أول من أدخل 'الموطأ' و'جامع سفيان' [إلى] المغرب"، وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم". أما الغازي بن قيس القرطبي -المتقدم ذكره- فهو "أول من أدخل موطأ مالك" [فقد] شهّد مالكاً وهو يؤلف 'الموطأ'.. وانصرف إلى الأندلس بعلم عظيم نفع الله به أهلها؛ حسبما يرويه عياض

ولا يمكن الحديث عن هجرة الكتب والروايات الحديثية من المشرق إلى الأندلس دون ذكر محدّثها بقيّ بن مخلّد (ت 276هـ/889م) الذي يقول ابن الفرضي إنه "رحل إلى المشرق فلقى جماعة من أئمة المحدثين وكبار المُشَيِّدين"، [فكان] عدّة الرجال الذين لقيهم بقيّ وسمع منهم: مثلاً رجل وأربع وثمانون رجلاً!"

ثم عاد بقيّ إلى الأندلس "وكان مما انفرد [بجلبه من الكتب].. ولم يُدْخِلْه سواه: 'مصنّف ابن أبي شيبة' (ت 235هـ/849م).. وكتاب [الأمّ] للشافعي في] الفقه، وكتاب 'التاريخ' لخليفة بن خياط (البصري ت 240هـ/854م)". وبجهود بقيّ هذا ومحمد بن وضّاح -المتقدم ذكره- وما جلباه من كتب انتشرت مرويات السُّنة بالبلاد "فصارت الأندلس دارَ حديثٍ وإِسناد!"

وفي 'جذوة المقتبس' للحميدي الأزدي (ت 488هـ/1095م) أن محمد بن معاوية المعروف بابن الأحمر (ت 347هـ/958م) "رحل قبل الثلاثمئة ودخل العراق وغيرها"، وقد رآه أبو سعيد بن يونس (ت 347هـ/958م) "بمصر في مجلس أبي عبد الرحمن النّسائي (ت 303هـ/915م).. قبل سنة ثلاثمئة"، ثم يقرر الحميدي أن ابن الأحمر "هو أول من أدخل الأندلس مصنّفه في السُّنن (= سنن النّسائي)، وحدث به وانتشر عنه!"

ويفيدنا الحميدي بأن السبب الأصلي لرحلة ابن الأحمر لم يكن تحصيل العلم بل ذهب في رحلة استشفائية قادته إلى الهند، لكنه "اشتغل في رجوعه بطلب العلم وروايات الكتب فحصل له علم جَمٌّ وبورك له فيه!" ويحكي الحميدي عن شيخه الإمام ابن حزم (ت 456هـ/1063م) أنه قال: "لم أزل أسمع المشايخ يقولون: إن سبب خروجه إلى المشرق كان أنه خرجت بأفنه أو ببعض جسده قُرْعةً، فلم يجد لها بالأندلس مُداوياً، فأسرع الخروجَ إلى المشرق، فقليل له لا دواء لها إلا بالهند" فذهب إليها ووجد فيها العلاج!

وفي إطار رصد رحلة مدونات الحديث وعلومه من المشرق إلى الأندلس؛ يقول ابن بَشْكُوَال الأندلسي (ت 578هـ/1181م) -في كتابه 'الصلة'- إن عثمان بن أبي بكر الصّدْفِي السّفاقسي (ت 440هـ/1049م) وصل إلى الأندلس سنة 436هـ/1045م "بعد أن تجوّل بالمشرق وأخذ عن علمائها ومحدثيها"، ودخل قرطبة في هذا التاريخ وأسمع الناس بها، وحدث عنه مشيختها وعلمائها، وتطوّف بسائر بلاد الأندلس؛ وهو أول من أدخل كتاب 'غريب الحديث' للخطّابي (البُشتي ت 388هـ/999م) الأندلس".

تحقيق جماعي

وعلى ذكر 'الموطأ' و'بُيُنن النّسائي'؛ فإن 'صحيح البخاري' بما ناله من مكانة لدى المسلمين كان وصوله إلى أي قطر إسلامي حُرّاً بالتأريخ والتوثيق، ويخبرنا الذهبي -في 'السّير'- أن الإمام سعيد بن عثمان البَرّاز (ت 353هـ/964م) "نزل مصر بعد أن أكثر الترحال ما بين النهرين: نهر جيحون ونهر النيل"، ولقي في رحلته الطويلة بخراسان محمد بن يوسف الفَرّجِي (ت 320هـ/932م) الذي هو أوثّق من روى 'صحيح البخاري' فأخذه عنه، وبذلك كان البراز "أول من جلب [كتاب] 'الصحيح' إلى مصر وحدث به" فيها!

وجاء في كتاب 'الإمام المازري' لمؤرخ الثقافة التونسية حسن حسني عبد الوهاب (ت 1388هـ/1968م) أن أبا الحسن القابسي (ت 403هـ/1013م) كان "من كبار الفقهاء المحدثين، قرأ في القيروان ثم رحل إلى المشرق، وسمع من عليّة زوارة الحديث، وهو أول من أدخل صحيح البخاري إلى إفريقية".

وبلغت نُسخُ من 'صحيح البخاري' من الدقة والضبط أنه كان يؤرّخ لوصولها إلى قُطر ما؛ ومن ذلك ما ذكره المؤرخ الناصري السلاوي (ت 1315هـ/1898م) -في كتابه 'الاستقصا-' من أن المحدث أبا العباس ابن ناصر الدرعي (ت 1129هـ/1716م) "كان معتنياً بشراء الكتب واقتنائها، حتى قيل إنه اشترى بمصر في آخر حياته [ما قيمته] مئة مثقال ذهب (= اليوم 18 ألف دولار أميركي تقريباً) من الكتب [كما] اشترى نسخة من صحيح البخاري بمكة بثلاثة وسبعين مثقالاً ذهباً، وهو أول من أدخل 'اليونينية' للمغرب ولم تُر قبله ولا بعده!"

و"اليونينية" -المذكورة هنا في كلام السلاوي- هي نسخة 'صحيح البخاري' التي حققها على عدة نُسخ مجموعة من العلماء المختلفي التخصصات -بينهم الإمام ابن مالك النحوي (ت 672هـ/1274م)- بإشراف الإمام المحدث شرف الدين اليونيني (ت 701هـ/1301م).

ولم يكن الاعتناء بالأصول الحديثة مقتصرًا على العلماء والمحدثين؛ فهذا السلطان المغربي العالم سيدي محمد بن عبد الله العلوي (ت 1204هـ/1790م) صنّف مؤلفات في الحديث النبوي، وكان "أول من أدخل 'المسانيد الأربعة' للمغرب من الحرم الشريف"، حسبما أورده الحنوي الفاسي (ت 1376هـ/1956م) في 'الفكر السامي'.

أوليات الأمهات

بعد استقرار المذاهب الفقهية في الأمصار؛ صار لكل مذهب فقهي كتبه المعتمدة التي جمع فيها رجاله فقه كبار علماء مذهبهم، وكان وصول هذه الكتب إلى أحد البلدان علامة فارقة في تاريخ انتشار المذهب فيه وفي إقليمه؛ فهذا عبد الرحمن بن دينار القرطبي (ت 201هـ/816م) "كانت له رحلات استوطن في إحداهن المدينة [المنورة]، وهو الذي أدخل [إلى الأندلس] الكتب المعروفة بالمدينة فسمعها منه أخوه عيسى (بن دينار ت 212هـ/827م)، ثم خرج (= رحل) بها عيسى فلقى ابن القاسم [تلميذ مالك] فعرضها عليه [بمصر]؛ وفقا لابن الفرضي [

وأما 'المدونة الكبرى' التي هي أمّ الفقه المالكي؛ فيقول القاضي عياض إن عثمان بن أيوب ابن أبي الصلت القرطبي (ت 267هـ/880م) رحل إلى القيروان حيث سمعها من مدوّنها سحنون، وهو "أول من أدخل المدونة بالأندلس". وفي 'الاستقصا' للسلاوي أن أول من أدخل 'المدونة' إلى مدينة فاس هو الفقيه دّراس بن إسماعيل الفاسي المذكور آنفاً]

وحسب عياض أيضاً؛ فقد رحل الفقيه الأديب محمد بن وازع الضرير القرطبي (ت 374هـ/985م) إلى المشرق، وكان ممن سمع منهم ببغداد إمام المالكية بالعراق أبو بكر الأبهري (ت 375هـ/986م) ف"أخذ عنه كتبه وانصرف إلى الأندلس [، وهو أول من أدخل كتب الأبهري وابن أبي زيد (القيرواني ت 386هـ/997م) قرطبة".

كما نجد لدى السلاوي توثيقاً لتاريخ وصول 'مختصر خليل' للفقيه للشيخ خليل بن إسحق المالكي (ت 776هـ/1374م) -الذي صار عمدة أهل المذهب المالكي تدريسا وإفتاء- إلى المغرب الأقصى؛ إذ يقول إن الفقيه محمد بن عمر ابن الفتوح التلمساني (ت 818هـ/1415م) هو "أول من أدخل(ه) مدينة فاس والمغرب".

ولم يكن الشافعية بأرهد من المالكية في التأريخ لهجرات أمهات مذهبهم؛ فالسبكي يقول -في 'طبقات الشافعية'- إن مؤرخ مَرَوّ وفقهها أحمد بن سيار المروزي (ت 268هـ/881م) هو الذي "حمل كتب الشافعي إلى مَرَوّ وأعجب بها الناس"، وكان حريصاً على هذه الكتب جدا حتى إنه منع النظر فيها لأحد الفقهاء الذين يرجع لهم الفضل بعده في نشر المذهب الشافعي بمرور]

فمن مناقب الفقيه ومحدث عصره في مرو عبدان بن محمد بن عيسى المروزي (ت 293هـ/906م) أنه كان "أول من حمل 'مختصر المزني' إلى مرو، وقرأ علم الشافعي على المزني والربيع وكان فقيها حافظاً للحديث". ويقول السبكي إن سبب رحلة عبدان إلى مصر -حيث التقى كبار تلامذة الشافعي- أنه لما نظر في الكتب التي جلبها أحمد بن سيار -المتقدم ذكره- من نسخها، "فباع ضيعة (= عقارا أو أرضا) له بِجَنَوجَرْد (= قرية بمَرَوّ) وخرج إلى مصر وأدرك الربيع وغيره من أصحاب الشافعي ونسخ كتبه، وأدرك من المشايخ والفقهاء ما لم يُدرك غيره وحمل عنهم".

ومن كتب الشافعية المدرسية كتاب 'المهذّب' لإمام مذهبهم في زمانه بالعراق أبي إسحق الشيرازي (ت 476هـ/1084م)؛ ويقول ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ/1679م) -في 'شذرات الذهب'- إن دخول هذا الكتاب المهم إلى أرض اليمن كان بواسطة الفقيه التاجر الثري محمد بن عُبْدُوَيْه (ت 525هـ/1131م)، الذي "تفقه بالشيخ أبي إسحق ببغداد، وقرأ عليه كتابه 'المهذّب'.. وهو أول من دخل ب'المهذّب' إلى اليمن!"

ومنها كذلك كتاب 'العزير شرح الوجيز' للإمام عبد الكريم الرافعي الشافعي (ت 623هـ/1226م)، وكان عبد الرحمن بن سعيد الهمداني (ت 690هـ/1291م) "أول من أدخله إلى الجبال" أي المناطق الوعرة باليمن؛ حسبما في 'تلائد النحر' للحضرمي [و يذكر المؤرخ اليمني عبد الوهاب البُرَيْهِي (ت 904هـ/1499م) -في طبقات ضُلعاء اليمن- أن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن صقر الغساني الدمشقي (ت 785هـ/1383م) "هو أول من أدخل كتاب 'المهمات' إلى اليمن"، وهذا المصنّف من تأليف جمال الدين الإِسْبَئَوِي (ت 772هـ/1370م) ويعدّ من نفائس كتب الفقه الشافعي]

مفارقة لافتة

كان أهل الكوفة والبصرة هم رواد تدوين العلوم اللغوية بنحوها وصرفها ومعجمها وآدابها، ولكون أغلبية هؤلاء الرواد مسلمين فإنه يبدو غريباً أن يدخل أول معجم عربي -وهو كتاب 'العين' للخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي (ت 175هـ/791م)- عاصمة العباسيين بغداد لأول مرة على يد طبيب مسيحي هو خُثَيْن بن إسحق العبَّادي (ت 260هـ/874م)!

فجمال الدين القفطي (ت 646هـ/1055م) يفيدنا -في 'إخبار العلماء بأخبار الحكماء'- بأن هذا الطبيب الماهر والمترجم البارز "كان فصيحاً في اللسان اليوناني وفي اللسان العربي، بارعاً شاعراً خطيباً فصيحاً لِسَنًا، ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربي، وأدخل كتاب 'العين' ببغداد"!!

ولما كانت الرحلة إلى العِصْرَيْن (البصرة والكوفة) مجداً يتنافس فيه طلبية العلم من الأقطار الإسلامية طلباً للأصول من مصنفات معارف اللغة وإِعْلَاءً للسند فيها؛ فإن وصول تلك المؤلفات العراقية إلى الأقاليم النائية في الأندلس وجوارها المغربي ظلَّ محلَّ احتفاء وابتهاج، يستحق صاحبه أن يخلَّد اسمه في صفحات التاريخ ومدونات التراجم والطبقات □

ومن أوائل مَنْ شَدَّ الرحالَ من أهل الأندلس إلى العراق النحويُّ جوديُّ بْنُ عُثْمَانَ العبَّسي (ت 198هـ/814م)؛ فقد "رحل إلى المشرق فلقى [الإمامين] الكِسائي (ت 189هـ/805م) والفَرَّاء (ت 207هـ/822م).. وَهُوَ أول من أدخل الأندلس كتابَ الكِسائي□□، وَكَانَتْ لَهُ حَلَقَةٌ وَأَدَّبَ أَوْلَادَ الْخُلَفَاءَ وَظَهَرَ عَلَى من تقدمه"، كما في 'التكملة' لابن الأَبَّار القضاعي (ت 658هـ/1260).

ويخبرنا مؤرخ علماء الأندلس ابنُ الفَرَّضي أن قاسم بن ثابت بن حزم العوفي (ت 302هـ/914م) "رحل مع أبيه فسمع بمصر ومكة... وغني بجمع الحديث واللغة هو وأبوه، فأدخل الأندلس علماً كثيراً، ويقال إنهما أول من أدخل إلينا: كتاب 'العين' للخليل الفراهيدي□

استقطاب أندلسي

وانتقل إمام اللغة والأدب أبو علي القالي (ت 356هـ/967م) من العراق إلى الأندلس سنة 328هـ/940م فقدمها سنة 330هـ/942م بدعوة من خليفته الأموي عبد الرحمن الناصر (ت 350هـ/961م)، وجلب معه علماً كثيراً وأخباراً فريدة وأشعاراً وافرة، أوصل ابنُ خير الإشبيلي (ت 575هـ/1179م) مؤلفاتها -في كتابه 'الفهرسة'- إلى أكثر من أربعين عنواناً، بعضها في حوالي خمسين جزءاً! هذا "سوى ما تزايد (= تنازل) عنه وأُجِدَ بالقيروان منه"!!

وقد عَرَفْتُ كُتُبَ الجاحظ (ت 255هـ/869م) طريقها إلى الأندلس عبر الأديب الطبيب فَرَج بن سلام القرطبي (ت نحو 273هـ/886م) الذي يقول ابن الفرضي إنه كان "معتنياً بالأخبار والأشعار والآداب وكان يُطَبِّب، ورحل إلى المشرق ودخل العراق فلقى□□ الجاحظ؛ وأخذ منه كتاب 'البيان والتبيين' وغير ذلك من مکتوباته، وأدخلها الأندلس رواية عنه".

وفي وقت قريب من نهاية القرن الثالث؛ قرر محمد بن علاقة القرطبي (ت 325هـ/937م) أن يسجل اسمه في الأندلسيين الخالدين من جَلَبَةِ كنوز المعارف، ف"رحل إلى المشرق وأخذ عن□□ أبي الحسن بن سليمان الأخفش (ت 315هـ/927م).. 'كامل' المبرِّد (ت 285هـ/898م)، وصار أصله (= نسخته الأصلية) منه إلى [الخليفة الأموي بالأندلس] الحَكَم المستنصر بالله (ت 366هـ/977م). [وقد] قال الحَكَم: ولم يصح كتاب 'الكامل' عندنا برواية إلا من قبل ابن علاقة"!! وفقاً لابن الأَبَّار□

أما كتب الإمام اللغوي أبي جعفر النَّدَّاس (ت 311هـ/923م) فقد قام بجلبها إلى الأندلس محمد بن مفرج القعافري القرطبي (ت 371هـ/988م)؛ إذ رحل إلى المشرق فلقى أعلاماً منهم النحاس الذي روى عنه من تأليفه: 'إعراب القرآن' و'المعاني' و'الناسخ والمنسوخ' وغيرها، وكان بذلك "أول من أدخل هذه الكتب الأندلس"؛ وفقاً لابن الفرضي□

وفي نموذج آخر -معاكس وجهةً وغايةً ومطابقٍ قيمةً ونتيجةً- لرحلة ابن الأحمر الأندلسي إلى الهند المذكورة آنفاً؛ يروي لنا الشنتريني (ت 542هـ/1147م) -في كتابه 'الذخيرة'- قصة مغامرات الوزير والسفير الشاعر أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي (ت 455هـ/1066م)، التي قادته -طوال سنواتٍ- من بلاط الهند الغزنوية شرقاً إلى قصور العباسيين ببغداد والمرداسيين ببلب والفاطميين بالقاهرة والصنهاجيين بالقيروان، وألقت به غرباً في إمارة أسرة ذي النون الهَوَّارية بطليطلة الأندلسية؛ حيث وصلها سنة 454هـ/1065م فكان "أول من أدخل كتاب 'اليتيمة' للشعالبي (أبي منصور ت 429هـ/1038م) عندهم" في الأندلس!!

نزوح ورسوخ

في كتابه 'المدارس النحوية' أرخ العلامة شوقي ضيف (ت 1426هـ/2005م) لما أسماها المدرسة الأندلسية والمصرية في النحو، وكانت تلك الكتب اللغوية -التي رصدنا تواريخ وصولها إلى الأندلس والغرب الإسلامي- هي البذرة الأولى لتلك المدرسة المتميزة، التي خدمت لغة القرآن وارتقت بالدراسات اللغوية في تلك الأقطار انطلاقاً من مصر، لاسيما أن ذلك تعزز بهجرة واسعة نحو المشرق اضطرَّ إليها علماء الأندلس منذ بدأت حواضرها في التساقط في أيدي المسيحيين مع مطلع القرن السادس الهجري/ال12م□

ومثل الأندلس في انتقال الكتب مصر؛ فممن نقل علوم اللغة إلى أرض الكنانة الإمام النحوي الوليد بن محمد التميمي المعروف بولَّاد (ت 263هـ/877م)، كان "أصله من البصرة ونشأ بمصر، ورحل إلى العراق وعاد إلى مصر، وهو الذي أدخل إليها كتب اللغة ولم تكن بها قبله، [فقد] لقي الخليل [الفراهيدي] بالبصرة ولازمه وأخذ عنه".

وممن خدم اللغة في مصر أبو الطيب السبتي المالكي (ت 695هـ/1300م) "نزىل قوص كان من العلماء العاملين الفقهاء...، وهو الذي أدخل شرح ابن أبي الربيع (السبتي ت 688هـ/1289م) [لكتاب 'الإيضاح' لأبي علي الفارسي (ت 377هـ/988م)] إلى مصر"؛ كما في 'الوافي بالوفيات' للصفدي (ت 764هـ/1364م). والسبتي هذا ومعه تلميذه أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ/1345م) وغيرهما ممن نَزَحَ إلى مصر بسبب

الاضطرابات في الأندلس؛ كانوا هم أساس النهضة النحوية والأدبية في مصر التي ورثت الزعامة الثقافية للعالم الإسلامي غداة أفول نجم العراق والشام وتهاوي الأندلس!!

وكما حصل في العلوم النقلية؛ لم يغب التأريخ لانتقال كتب العلوم التجريبية -في أقطار الإسلام شرقا وغربا- عن دائرة رصد المهتمين بحركة الأفكار والعلوم وتنقل مصنفاتها بين البلدان والأقاليم البعيدة؛ ففي المجال الطبي يحدثنا ابن أبي أصيبعة ضمن ترجمته -في عيون الأنباء- للطبيب الأندلسي الكبير أبي العلاء بن زهر (ت 525هـ/1131م) عن أنه "في زمانه وصل كتاب 'القانون' لابن سينا (ت 428هـ/1038م) إلى المغرب...، [وذلك] أن رجلا من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من هذا الكتاب قد بولغ في تحسينها، فأتحف بها لأبي العلاء بن زهر تقرّبا إليه ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك، فلما تأمله ذقّه وأطّرحه"!!

ويذكر ابن أبي أصيبعة أيضا أنه في سنة 632هـ/1235م "وصل إلى دمشق تاجر من بلاد العجم (= فارس إلى آسيا الوسطى)، ومعه نسخة من شرح ابن أبي صادق (النيسابوري ت نحو 470هـ/1077م) لكتاب 'منافع الأعضاء' لجالينوس (ت 216م)، وهي صحيحة... من خط المصنف، ولم يكن قبل ذلك منها نسخة في الشام"!!